نهاية المعلّم صقر

جرى الواقع في تلك الليلة مثل حلم. جاء المعلّم صقر ابن السبعين بعروسه حليمة بنت العشرين إلى الدور الثاني من بيته ليستقبل أولى ليالي شهر العسل. في الدور التحتاني، جلست الزوجة الأولى أم الأولاد مع ابنها رجب يتبادلان الأفكار في صمت وأسى. الأمّ خاشعة تحت جبال الهمّ، أما رجب، فالغضب يسود دماء وجهه. ونظر الشاب إلى السقف وقال: "شيء لا يصدّق!".

فقالت الأمّ العجوز: "كل ما يقع في هذه الأيام لا يصدّق".

– هذا ينذر بخراب عاجل!

– بل أدعو الله أن يكون بقي له شيء من العقل.

– المخيف أن كل ثروته في خزانته التي بحجرة نومه.

– ولكنه لن ينسى أنّ في ذمته نساء خمساً ورجلاً.

فصاح بغضب: "كم أنا نادم لأنني لم أتعلّم ولم أعمل!".

– كنت ابنه الوحيد فلم يثقل عليك بشيء.

– لو كان أمري يهمه حقاً، ما وضع مصيري تحت رحمة بنت جشعة.

– لا تستسلم للغضب فالغضبان خسران.

– لا بد من عمل شيء.

– فكر بحساب، لا بد أن يوجد باب للأمل.

ففكر الشاب قليلاً ثم قال: "الحلّ أن يعطيني، أنا، وأخواتي وأنت حقوقنا الشرعية".

– مطلب عادل ولكنه سيغضب.

– إن خفنا، ضعنا.

– الحكمة مطلوبة وإلا صارت الخيبة خيبتين...

طيلة العمر لم يجر بينهما إلا ما هو جميل وطيب. حقاً أحبه أكثر من أي شيء في الوجود. حتى رُمي بهذه البنت الصغيرة، وبذاك الحب الشديد، دلّله وأفسده وجعله يواجه الدنيا بلا علم أو عمل. وكانت الخزانة مبعث طمأنينته حتى ضمتها العروس إلى حضنها فلا أمان بعد اليوم.

ووجد مخرجاً في شيخ الحارة، فذهب إليه بوصفه الصديق القديم لأبيه وأفضى إليه بهمومه وقال: "معذرة فأنت أفضل في مخاطبته مني".

فقال له شيخ الحارة: "إكراماً للجيرة والودّ سأبذل ما عندي، والله الموفق".

وعقب صلاة الجمعة انتحى شيخ الحارة بالمعلّم جانباً ونصحه بما يراه عدلاً وصواباً. ولكن المعلّم غضب وقال له ساخطاً: "أيريدون أن يرثوني قبل موتي؟... هذا من إغراء الشيطان ودفعه...".

وتوقع رجب أن يدعوه ليوبّخه، ولكنه تجاهله وقاطعه، فكان ذلك أشد عليه وأفظع. وطاردته المخاوف في اليقظة والنوم. وصمّم على الدفاع عن نفسه وأمّه وأخواته وراح يفكر فيما ينبغي عمله. ولكن

الحوادث لم تمهله فقد رجع المعلّم صقر من سهرة في مولد فوجد مسكنه خالياً وخزانته فارغة. وتناهى الخبر إلى الأسماع من خلال ثورة غضبه. وسرعان ما عرف أن العروس هربت مع ابن عمّها. وانتشر الأهل والأصدقاء مع الشرطة يبحثون ويتحرّون لكنّ المعلّم سقط مفقوداً بين الحياة والموت فأعادهم بائسين إلى حجرته. وهمس رجب في أذن أمّه: "سيتركنا للخراب".

فقالت المرأة بحزن شديد: "علينا الآن رعايته، وليفعل الله ما يشاء".

وسكن المعلّم في غيبوبة متقطعة ولم يعد يشعر بأي أسف على أي شيء. وفي لحظة إفاقة، عرف زوجه وذريته. وخيّل إلى المرأة أنه يريد أن يقول لها شيئاً فقربت أذنها من فيه. وهمس الرجل: "فوق الحمّام...".

ورحل المعلّم ولكن الهدوء لم يرجع إلى بيته قبل أيام. وكانت الأسرة تتساءل طيلة تلك المدة عما عناه الراحل بإشارته إلى السَّندرة التي توجد فوق الحمّام.

ورأى رجب أن يقص رسالة أبيه. صعد إلى السندرة على سلّم خشبيّ وبيده مصباح غازي. استقبلته أغشية العنكبوت، أما الفئران، فولّت هاربة. ونظر بعينين ملهوفتين، فرأى سحارة راقدة في هدوء خارج الزمن.

عند فتحها وُجدت مكدّسة بالجنيهات الذهبية.